محمد حسنين هيكل

# حرب من نوع جديد!




دار الشروق

# حـــرب من نوع جديد

الطبعـــة الأولـــى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م




أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) - بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤
هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

محمد حسنين هيكل

# حرب من نوع جديد

دار الشروق

# رسـالة
# من لجنة جائزة
# جمـال عبدالناصـر

**مركز دراسات الوحدة العربية**

**(وقفية جمال عبدالناصر)**

**جائزة الفكر القومى**

الأخ الأستاذ محمد حسنين هيكل المحترم

تحيـة أخـوية،

يسرنى إبلاغك أن لجنة تحكيم «جائزة جمال عبدالناصر» التقديرية، قد اجتمعت صباح اليوم، الجمعة ١٩ فبراير ١٩٩٩، برئاسة دولة الرئيس الدكتور سليم الحص، وقررت بإجماع الآراء اختيارك لنيل الجائزة فى دورتها الأولى.

وطبقًا لأحكام النظام الأساسى للجائزة، سيعلن اسم الفائز فى مؤتمر صحفى يوم ٢٢ فبراير ١٩٩٩، ذكرى قيام دولة الوحدة، وسيتم تسليم

الجائزة يوم ٢٦ يوليو ١٩٩٩ ، ذكرى تأميم قناة السويس ، فى احتفال عام فى بيروت .

يسرنى كثيراً تهنئتك بنيل الجائزة، تقديراً لمواقف عديدة، جديرة فعلاً بالاعتزاز والتكريم .

ودمتم لأمتكم ولنا . . رأيًا حرًا، وفكرًا خلاقًا، وسندًا .

مع أطيب التمنيات وأصدقها .

**د. خير الدين حسيب**

## رد من محمد حسنين هيكل

## إلى لجنة «جائزة جمال عبد الناصر» التقديرية

لقد شعرت بالكثير من العرفان بالفضل عندما تلقيت رسالتكم الكريمة تنقل إليّ قراركم باستحقاقي لجائزة «جمال عبد الناصر للفكر القومى» .

وكان عرفانى بالفضل مضاعفا لأن هذه الجائزة تمنح لأول مرة حاملة ذلك الاسم الغالى على الأغلبية الساحقة من المواطنين العرب .

ولعلى لا أتجاوز إذا قمت بتذكير لجنتكم الموقرة أن لدىّ موقفا معروفا ومعلنا بشأن قبول الأوسمة والنياشين ـ والجوائز أيضا ـ وذلك عن اعتقاد بأنه فى مثل ظروفنا العربية الراهنة وما يعتريها من ملابسات ـ فإنه يحسن ترك حساب أى رجل عام لأجيال قادمة لديها الفرصة أن تدرس وتفحص .

يضاف إلى ذلك يقينى بأن تقدير أى مشتغل بالكتابة ـ إعلاما أو فكرا ـ هو سلطة قرائه .

وأنا أعرف أن لجنتكم الموقرة هيئة ثقافية وقومية ـ لكنى أحسب أن الأفضل إبقاء القواعد عامة وحتى صارمة .

ومع ذلك فإن لدى ضعفا ـ لا أعتذر عنه ـ فى حالة جائزة «جمال عبد

الناصـر» بالتـحـديد لأنهـا تجيء إليّ بنداء لا أملك إزاءه غـيـر أن أصـغي باحترام ثم ألبي.

وتوفيـقا بين كل الاعـتبارات فإنـه يسعـدني ويشرفني أن أقبل جائزة «جمال عبد الناصر للفكر القومي» - ولكني أرجوكم - في الوقت نفسه - إعفائي من قبول التقـدير المادي المصاحب للجائزة مع علمي بأن معناه الرمزي واضح ومؤكد.

ولسوف أكون سعيدا إذا تفضلتم بإعادة هذا المبلغ إلى أرصدة مؤسسة الجائزة يساعد على خدمة هدف من أهدافها، أو أن تتفضلوا بتوجيهه إلى أي مـجال ترونه نافعـا ومؤديا إلى نفس الغـرض الذي من أجله أنشئت الجائزة، وهو العمل بكل الوسائل على ألا تنطفئ شعلة لها القدرة على إلهام المستقبل العربي في ظروف صعبة ومضطربة تحتاج أكثر ما تحتاج إلى إعادة الاعتبار لفكرة العمل القومي مسلحة بمعرفة عوالم جديدة ومستندة إلى تجربة حافلة تركت ثقافة الحلم جاهزة لخدمة أهدافه في أزمنة متغيرة.

ومع كل التـحية لكم صادق الشكر ودعـائي إلى الله أن يبـارك كل يد تحاول أن تداري على شعلة الأمل العربي حتى لا تعصف بها مطامع القوة أو أوهام الضعف.

وبموفور الاحترام.

**محمد حسنين هيكل**

# كلمـة

## رئيس مجلس الوزراء اللبنانى

# الدكتور سليم الحص

## فى احتفال تسليم

## « جائزة جمال عبد الناصر»

## إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل

**بيروت فى ٢٦ يوليو ١٩٩٩**

**الأخوات والأخوة**

أعتقد - بداية - أن هذا اللقاء يلامس المجد من طرفيه : جمال عبد الناصر ومحمد حسنين هيكل . فلا شك في أن الأستاذ محمد حسنين هيكل ، بحكم سيرته المهنية ، يمثل قيمة إعلامية وسياسية رفيعة عربيا وعالميا ، بل يمكن القول إنه صاحب أكبر دور صحافي عربي في القرن العشرين .

أما مكان الأستاذ هيكل ومكانته بالنسبة إلى «جمال عبدالناصر» وثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، فإنه يحتلهما بغير منازع .

فالكاتب الكبير ومقالاته الشهيرة كلاهما يعتبر علامة بارزة في مسيرة ثورة ٢٣ يوليو، ويرجع ذلك في الأساس إلى العلاقة الفريدة التي جمعت بين «جمال عبد الناصر» و«محمد حسنين هيكل»، وهي العلاقة التي لم تتكرر مع أحد غيره.

فمنذ بدأت هذه العلاقة مع انطلاقة الثورة، ومنذ بدأت مقالات «بصراحة» على صفحات جريدة «الأهرام» عام ١٩٥٧، وهو إلى جواره باستمرار، في منزلة «الصديق والمحاور». لقد كان يكتب عملا بمبدأ «صديقك من صدقك، لا من صدّقك». وربما من تغلغل هذا المبدأ في أعماقه اشتقت مقالات «بصراحة» اسمها ومضمونها.

كذلك فإن ظروف تلك العلاقة الفريدة قد أتاحت له أيضا أن يقوم بدور «الشاهد».. وقد عبر عن أهمية ذلك الدور بقول له مغزاه حيث كتب يقول: «لست أدعى أسبقية بوضع اليد على الحقيقة، ولكنى أقول - كما يقول التعبير القانونى - إن «الشاهد جزء من الدليل».. ثم إنه كان من القلائل الذين حافظوا على هذه العلاقة.. حتى «اللحظة الأخيرة» التى انتقل فيها «جمال عبدالناصر» إلى رحاب ربه.. و«الصديق» إلى جواره.. «شاهد» على لحظة الرحيل القاسية.. إذ توقف «الحوار» مرة واحدة وإلى الأبد.

وإذا كان «محمد حسنين هيكل» قد بنى لنفسه عالمًا خاصًا، وأصبح «مؤسسة» بحد ذاته.. فقد استمر يمارس دور الصديق والمحاور للوطن والأمة، بغض النظر عمّن جاء بعد «جمال عبدالناصر»، واحتل مكان

«الرئيس» . . وهكذا فقد استمرت مقالاته على صفحات جريدة «الأهرام» - حتى «أخرج» من تلك المؤسسة العريقة، فى عام ١٩٧٤ . . نتيجة لهذه المقالات تحديداً .

وإذا كانت مقالات «بصراحة» لها مكانة خاصة طوال مرحلة الثورة، فإنه من الظلم للرجلين - وللحقيقة - أن يقال إنها كانت تعبيراً عن آراء «جمال عبدالناصر» . . بل إن البعض منها مثل مواجهة حادة مع بعض قرارات أو سياسات أو مواقف اتخذها «جمال عبدالناصر» . . وهذه شهادة حضارية للرجلين معًا .

والحقيقة أن مقالات «بصراحة» كانت تعبيراً عن الكثير من أهداف ومبادئ الثورة وقضاياها ومعاركها . . وذلك جنبًا إلى جنب مع كونها تعبيراً عن اختيارات الثورة السياسية والفكرية . . وبالتالى يمكن القول إنها كانت «سجلاً تاريخيًا» أمينًا لحركة الثورة وقائدها، إنما فى الإطار العام لنضال الوطن والأمة .

وفضلاً عما تقدّم، لا شك أن تلك المقالات كانت تمثل فى كثير من الأحيان «نقداً» لكل ذلك . . فى ظل جمال عبدالناصر، ومن بعده . لقد كتب الأستاذ هيكل ما كتب فى عهد «جمال عبدالناصر»، ولم يَدَّع شيئًا بعد وفاته، ويمكن القول إن كتاباته كلها كانت تمثل مراجعة نقدية أصيلة لمسيرة الثورة، تلتزم بالمبادئ، لكنها تعطى نفسها أوسع مجالات الحرية فى مناقشة التطبيق .

ولا شك أن هذا الموقف الذى التزمه الأستاذ هيكل فى كل كتاباته هو الذى حفظ له مكانة الصديق . . والشواهد على ذلك كثيرة . . ومنها :

* إن جمال عبدالناصر عرض عليه المنصب الوزارى عدة مرات من سنة ١٩٥٦ فى أول وزارة ألفها ، حتى سنة ١٩٧٠ فى آخر وزارة شكلها حينما أعلن قرار تعيينه وزيراً للإرشاد القومى ، بالإذاعة دون أن يخطره ، ولم يقبل منه اعتذاراً ، على أساس أن تلك المرحلة التى شهدت اشتداد حرب الاستنزاف وفى إطار التحضيرات الجارية آنذاك لشن حرب التحرير ، كانت تقتضى أن يتولى مسؤولية وزارة الإرشاد .

* إن جمال عبدالناصر ائتمنه على فكره الاجتماعى والسياسى . وأكثر من ذلك تشهد الوثائق الرسمية المصرية فى رئاسة الجمهورية ووزارة الخارجية بأنه تولى صياغة معظم خطبه وخطاباته ومراسلاته مع كل رؤساء الدول فى عصره .

* إن جمال عبدالناصر اختاره رفيقًا فى أخطر رحلتين سريتين قام بهما ، وهما رحلته إلى موسكو فى يوليو سنة ١٩٥٨ فى أعقاب ثورة العراق ، ثم رحلته إلى موسكو أيضا فى يناير ١٩٧٠ ، وكان هدفها بناء حائط الصواريخ على قناة السويس وتأمين وسائل الدفاع عن عمق مصر .

* إن جمال عبدالناصر عرف «منظمة فتح» عن طريقه ، بالطبع حين كانت ترفع شعار «ثورة حتى النصر» ! وكان هو الذى تولى تقديم قادتها إليه ، وظل طوال عهده صلة الوصل بين السلطة العليا فى مصر وقيادة الثورة الفلسطينية .

وبمقتضى ذلك كله - وغيره كثير - كان الأستاذ هيكل طرفًا فى حوار مستمر مع جمال عبدالناصر قام على الثقة.

ويكفيه فخراً أن المشكلات بدأت تقابله من جراء تصدّيه للحملة الشرسة والمغرضة على «جمال عبدالناصر». وتشهد كتاباته بهذا الخصوص أنه لم يكن يصدر فيما يكتب عن عاطفة أو عن تعصّب. فقد كان كل ما يطالب به أن يكون هناك تقويم أمين ونزيه لعصر رجل عظيم، لا يستطيع حتى أعتى خصومه أن ينكروا أنه فى حضوره كان تعبيراً حيًا عن ضمير أمته، كما أنه فى غيابه تحول إلى رمز كبير لتجربة مشرقة لا تزال قادرة على النمو والعطاء.

أما كتاباته بعد رحيل «جمال عبدالناصر»، وبخاصة عمله الضخم حول «حرب الثلاثين عامًا»، فهى جهد رائع وخالص من أجل إغناء الذاكرة التاريخية للوطن والأمة.

وبالتالى فهى مساهمة وطنية واجبة فى صد الغارات العدوانية الشرسة، التى تتدافع موجاتها بلا انقطاع، على ذاكرة الوطن والأمة.. حيث كل سلاح مباح، وكل شىء يستباح. والأوطان والأمم مثل الأفراد تصاب بالجرح فتشفى، وتصاب بالصدمة فتفيق، وتصاب بخسارة المال فتعوض - لكن فقدان الذاكرة التاريخية كارثة بلا حدود لأنه يودى بكل شىء، بما فى ذلك التاريخ والمستقبل.

ولذلك فإن محاولة «استعادة الوقائع» - التى كانت دافعًا وراء المجلدات الضخمة التى أصدرها الأستاذ هيكل - هى فى ناحية منها

محاولة «لاستعادة الذاكرة الوطنية»، خصوصًا إزاء أجيال من الشباب يشدها الشوق إلى الحقيقة. وذلك ضمانة هامة من أجل المستقبل.. لأن من يفقد ذاكرته فى منتصف رحلة، لن يكون قادراً على تكملتها.. فضلاً عن أن العصر كله هو عصر الذاكرة الواعية، عصر المعلومات وحفظها وترتيبها واستدعائها لتكون حية فى رؤية المستقبل، وفاعلة فيه بالإدراك والإرادة.

ولذلك تجىء «المعلومات»، فى كتاباته، أكثر من الآراء، وتبدو الوقائع أوسع من التحليل. وأساس ذلك أن «محمد حسنين هيكل» - على حد تعبيره هو - «ينتمى إلى مدرسة تعتقد أن صميم حرية الصحافة هو ضمان تدفق المعلومات. وفى هذه المدرسة فإن المعلومات والأخبار والخلفيات هى البناء التحتى الذى يمكن أن تقوم عليه حرية الرأى من اختلاف الاجتهادات». وقد كان ممن يعرفون قيمة المعلومات والوثائق وضرورة «تسجيلها»، حتى مقابلاته الشخصية ومحادثاته الهاتفية مع «جمال عبدالناصر» كان يسارع إلى تسجيلها.

وفى الحقيقة فإن علاقة كتاباته بالتاريخ تقتضى وقفة خاصة.

ونقطة البداية أن هذا «السجل التاريخى» الذى قدمه الأستاذ هيكل حول حرب الثلاثين عامًا وما يرتبط بها من كتابات أخرى، فى حد ذاته، ليس تاريخًا.. فإن «الصحفى» - وهى الصفة التى يحرص «محمد حسنين هيكل» على تأكيدها والاعتزاز بها - يستطيع أن يقدم «شهادة تاريخية».. ولكن الشهادة التاريخية - حتى وإن كان مصدرها أحد شهود

الحدث الذى يكتب عنه - ليست تاريخًا، وإنما هى - إذا صدقت - تصلح لأن تكون «مادة تاريخية» أى عنصراً من العناصر، حين يكتب التاريخ.

إن تأمل هذا السجل التاريخى يعيدنا إلى أجواء الاختبار الكبير الذى نضج ونجح فيه جيل الخمسينيات فى الوطن العربى، الذى عبر عنه جمال عبدالناصر وقاد اندفاعه، وهو الجيل الذى تحمل على أكتافه مسؤولية «الانتقال العظيم» من عصر الاستعمار والسيطرة الأجنبية على الأقدار العربية، إلى عصر الاستقلال والإرادة العربية الحرة.. ثم هو الجيل الذى أدرك المضمون الاجتماعى لقضية الاستقلال الوطنى فراح يتابعها ويؤكد عليها.

كان هذا هو الجيل الذى فتح الطريق أمام شعارات: «الحرية والاشتراكية والوحدة»، و«من المحيط إلى الخليج»، و«بترول العرب للعرب»، و«نصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا»، و«ارفع رأسك يا أخى»، و«إن الحرية لا تتجزأ، والنضال من أجلها لا يمكن عزله عن أصوله العالمية»، و«نحن جزء من حركة الثورة الوطنية فى العالم».. إلى آخره.. وكتابات الأستاذ هيكل فيها الكثير من ذلك.

ومن ناحية أخرى، فإن التاريخ ليس علم الماضى، وإنما هو علم المستقبل.. وذلك هو الفرق بين الأساطير والتاريخ.. وهذا الفرق بينهما له أهميته فى متابعة «السجل التاريخى» الذى تتضمنه كتابات الأستاذ هيكل.

فالأساطير تتوقف عند ما كان.. أما التاريخ فإن عطاءه مستمر فى كل

يوم والعطاء التاريخى الذى ينطوى عليه هذا «السجل التاريخى» بغير حدود. . و«استعادة الذكرى» من هذه الزاوية تصبح لها من ثم فائدة كبرى. معنى ذلك أن «الأحداث» التى يتضمنها هذا «السجل» لا تصبح قصة تروى عن الماضى. . وإنما تصبح مجالاً من مجالات صنع المستقبل. . وهذا هو أهم الفوارق بين الأستاذ هيكل وكثير من الكتاب والصحفيين.

وفى ضوء كل ما سبق كان من الطبيعى والمنطقى أن تقرر لجنة تحكيم الجائزة بالإجماع اختيار الأستاذ محمد حسنين هيكل ليكون أول من ينال «جائزة جمال عبدالناصر».

## محاضـرة

## الأسـتاذ محمـد حسـنين هيكل

**حضرات السيدات والسادة**

لا أعـرف كـيف أقـدم للرئيس سليم الحص عـرفـانى بالفـضل لهـذه الكلمات التى مَهَّد لى بها أمام هذا الحفل الكريم. كذلك لا أعرف كيف أقدم له عرفانى لأفضال كثيرة سبقت منه حين تولى رئاسة «لجنة جائزة جمال عبدالناصر» وحين شمل احتفالها الأول برعايته.

وفى ذات الوقت لا أعرف - أيضًا - كيف أعبر عن إعجابى بتلك الجهود المثابرة التى أتاحت لكثيرين أن يشهدوا تحقيق فكرة إنشاء جائزة تحمل اسم رجل أعطى لأمته عمره إلى آخر نفس فى صدره.

والحقيقة أنه ليس هناك أدعى للاحترام - فى هذا المجال - من أم تكرم رجالها فى غيابهم وجودًا وظلا - بحيث تنتفى مظنة أن يكون التكريم انحناء أمام سلطان أو انكسارًا أمام سلطة - أو أملا ورجاء فى منفعة أو نفوذ.

لكن ذلك لا يعفينى من شعور بحرج شديد حين أجد نفسى واقفا اليوم

كأول حاصل على هذه الجائزة، وأشعر بأننى لا أكون أمينا معكم ومع الناس ومع نفسى إذا لم أطرح أمامكم أسباب الحرج عندى ودواعيه.

أولها: أن لدى هاجسا يتعلق باستحقاقى لهذه الجائزة، ذلك أن ظرفًا تاريخيًا نادرًا منحنى شرف صداقة شخصية وعامة مع جمال عبدالناصر، وكانت هذه الصداقة الشخصية والعامة هى الجائزة التى لا يصح لى بعدها شىء.

لكن أصدقائى فى لجنة الجائزة كان لديهم اجتهاد مختلف، فهم يتعجلون تأسيسها، ولا يريدون تأجيل إعلانها، وليس لديهم فى اللحظة الراهنة وقت للبحث والفحص خصوصًا وظروف الأمة ما تعرفون. وهكذا فإن اختيارًا سريعًا ـ على الأقل مأمونًا ـ قد يكون مقبولا بدلا من انتظار ظرف أفضل لا يعرف أحد متى يجىء؟!.

وثانيها: فقد كان لدى اقتراح بأن تكون الجائزة فى المرة الأولى من نصيب مستحق لها قادم من نفس الأفق الذى ظهر عليه جمال عبدالناصر، وبالفعل طرحت فكرة إهدائها هذه المرة الأولى لـ«نلسون مانديللا»، وهو مناضل عظيم، ورفيق لجمال عبدالناصر رغم أن الاثنين لم يلتقيا فى الحياة، وقد سمعت «نلسون مانديللا» يقول فى جامعة القاهرة فى أثناء تكريمها له: «إنه كان لديه موعد تأخر ربع قرن مع رجل رفع رأسه من بعيد كى يراه، ثم حالت ظروف قاهرة بينه وبين لقياه، وحين جاء إلى مصر فقد كان من سوء حظه أن جمال عبدالناصر لم يعد هناك».

لكن لجنة الجائزة لم تأخذ باقتراحى رغم إعجابها غير المحدود بذلك الإفريقى العظيم ـ والعذر أنها وضعت لجائزتها شروطا تحصرها فى العرب. آملة فى أن يأتى يوم تكون هناك فيه جائزة دولية تحمل اسم جمال عبدالناصر.

وثالثها: أنه يلح على بشدة خاطر أن الأمة، وفى هذه الظروف ـ فقدت شهية الاحتفال من الأصل ومن كثرة ما رأت من صنوفه وألوانه مُخْتارة أو مُرْغَمة، والحاصل أن المهرجانات العربية زادت إلى درجة استغنى فيها الاحتفال عن مناسبة تستوجبه، كما أننا أسرفنا فى معايير الاستحقاق إلى درجة ضاعت معها خصائص المعادن!

لكن لجنة الجائزة رأت أن مثل ذلك لا يلحق بمناسبة تتصل بجمال عبدالناصر ـ وفى هذه الظروف بالتحديد.

ورابعها: أنه بدا لى أن أى احتفال فى بيروت الآن تثاقل على هذا البلد الجميل الذى صنعته الأشواق المتبادلة بين الصخر والموج، وبين الشعر والموسيقى ـ لأن الظروف وضعت لبنان وسط تقاطع نيران عرضته وما زالت تُعرِّضه تَجَنِّيًا أو جهلا لعواصف همجية آخرها تلك الضربة التى وجهتها إسرائيل إليه يوم ٢٤ يونيو الفائت. وورد على بالى أن بيروت ـ فى هذا الظرف ـ يصعب أن تكون فى مزاج احتفالى.

لكن لجنة الجائزة كان لها تقدير معناه أن هذا اللقاء ـ فى هذا الوقت ـ ليس احتفالا بقدر ما هو إحاطة بموقع حضارى عربى والتفاف حوله يؤكد

لأهله ـ ولغير أهله ـ أن لهذا الوطن اللبنانى موقعًا وسط الأمة متميزًا، وأن زواره فى هذه اللحظة بمثابة حجاج إليه .

وخامسها : وهذه مسألة ذاتية ـ فإن لدىّ موقفا معروفًا ومعلنا بشأن قبول الأوسمة والنياشين ـ والجوائز أيضًا ـ ومؤدى هذا الموقف أنه فى مثل ظروفنا العربية الراهنة وما يعتريها من ملابسات فإنه يحسن ترك حساب أى رجل عام لأجيال قادمة لديها الفرصة كى تُقَيِّم وتحكم ـ لكن موقفى هذا المعروف والمعلن لم يَصْمُد لأن لدىّ ـ كما شرحت فى خطاب إلى لجنة الجائزة ـ ضعفًا لكل ما يتصل بجمال عبدالناصر ، لأنه يجىء إلىّ بنداء لا أملك إزاءه غير أن أصغى باحترام ثم أُلبِّى . وكان التوفيق بين اعتباراتى واعتبارات الأصدقاء فى لجنة التقدير هو أن أشرف بالمعنى الرمزى للجائزة راجيًا إعفائى من التقدير المالى المصاحب لها ـ وكذلك اتفقنا .

### حضرات السيدات والسادة

قبل عدة شهور جمعتنى دعوة كريمة بواحد من السادة العرب لم أسعد بالتَعَرُّف إليه من قبل ، وقيل لى فى تزكيته الكثير . وفى بداية حديثنا أبدى مضيفى ملاحظة ودية ورقيقة ، ثم إنه فى سياق الحديث وجه سؤالاً ذكيًا وصادقًا .

ومع أنه لم يكن فى ظاهر السياق ما يوحى بعلاقة بين الملاحظة والسؤال ، إلا أن منطق القول مَدَّ بين الاثنين صلة .

* كانت الملاحظة أن هذا «السيد» وآخرين معه - كما تَبَدَّى من عبارته - يختلفون معى فى ألف رأى ورأى، لكنهم يتفقون على تقدير ما تكرَّم محدثى وأسماه «وفاؤك لصاحبك» (وكان بالطبع يقصد جمال عبدالناصر).

* وأما السؤال بعد ذلك، وقد بدا لى من لهجة إلقائه أنه يشغل بال مضيفى ويلح بجدية ومسئولية عليه - فهو «شعوره بوجود حالة إحباط عام لدى جماهير الأمة وحيرته فى السبب»، وكان سؤاله لى «ما إذا كنت أعرف؟».

. . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . . .

وكان تعليقى على الملاحظة أن الوفاء للصاحب فضيلة تُحْمَد حيث توجد فى البشر (وحتى فى غيرهم!) - لكنه فى الحالة التى قصدها مضيفى فإن الأمر لم يكن مُتَعَلِّقًا بالفضائل، ذلك أن صاحبى المشار إليه (دون تسميته) لم يكن مجرد رجل، وإنما كان إلى جانب الرجل رؤية، ولم يكن شخصه هو الرؤية، وإنما كانت الرؤية دوره فى التعبير عن أمته فى عصر معين بذاته وصفاته، وتلك حقيقة يُسَلِّم بها الجميع على اختلاف نظرهم فى الرجل وفى رؤيته وفى زمنه وعصره.

. . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . . .

وكان ردى على السؤال بعد أن رَجَوْت مضيفى أن يقبل منى ما يحتمله أى رأى من تَجَرُّد أو انحياز - «أن ما شعر به من حالة إحباط تعترى جماهير الأمة له فى ظنونى أسباب واضحة وشارحة، ملخصها أنه فى هذه اللحظة الحرجة من حياة الأمة - لا توجد رؤية واحدة، أو مجموعة رؤى، لها القدرة على إلهام الناس، كما أنه لا يوجد رجل واحد أو جماعة من الرجال لديهم قدر كاف من المصداقية يستطيع أن يُعَبِّر ويستطيع أن يقود من حيث هو يُعَبِّر.

ويتصل بذلك أن مرحلة حافلة من حياة الأمة مازالت ماثلة فى ذاكرتها - تَعَرَّضَت برؤاها ورجالها، وبأهدافها ومعاركها - إلى عملية استباحة.

والنتيجة أن الأمة أصبحت تحس وكأنها مصابة فى رشدها، لأنها إذا صدقت مقولات اليوم فقد كانت غفلتها بالأمس كارثة، وإذا أنكرت هذه المقولات فإن خديعتها الآن جريمة. وفى الحالتين فإن المستقبل أمامها غائم.

إن الأمم فى حقها وواجبها أن تراجع تجاربها، والمراجعة الأمينة حساب يجمع ويطرح، وهو فى النهاية يضيف منجزات أو يضيف خبرات يصبح تراكمها أرصدة تُوَفِّر للأمم طمأنينة تحتاجها فى أمسها وغدها.

ثم إن التغيير فى الملاءمة مع العصور ضرورى وواجب، وإلا فإن الأمم تتجمد ثم تتخلف، على أن التغيير يمكن أن يتم بغير كسر لأنه حين

ينكسر خط حركة فإن اتجاهه الطبيعى بعد الكسر إلى أدنى، ويصعب تَصَوُّره بعد الكسر إلى أعلى».

. . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . . .

قلت ذلك لمضيفى وزدت عليه «إنه ربما يتذكر أن «صاحبى» فى زمنه وعصره عبر عن أمته وقاد، وأنه حتى هذه اللحظة وبعد غياب عن الحياة قارب ثلث القرن مازال قضية حية وساخنة بسبب احتكاكات خشنة تجرى فى فكر ووعى وضمير كتل ضخمة من الناس، بل إنه أحيانًا ما يجرى الاحتكاك الخشن فى الواقع وعلى الأرض، ويترك بعده رضوضًا وكسوراً فى الجسم السياسى للأمة!

وهذه مسألة تستحق التوقف عندها بعناية.

□

والذى حدث هو أن الذين هاجموا الرجل حاضرا طاردوه غائبا؛ لأن العدو الحقيقى لم يكن شخصه، وإنما العدو - كما يظهر الآن جليًا - كان دوره فى التعبير عن رؤية تتعدى حدود الأشخاص، مع اعتبار أن كل رؤية تستحق هذا الوصف هى بَلْوَرة لمطالب إنسانية عليا لها قدرة البقاء، لأن لها قيمة الحياة.

فقيمة الحياة هى الحرية، وقيمة الحياة هى العدل، وقيمة الحياة هى التقدم، وقيمة الحياة هى الانتماء إلى رابطة إنسانية تنسجم فيها عناصر

القرب والقدرة، وقيمة الحياة هى أن تعيش المجتمعات متساوية فى اتساق مع زمانها وأهل زمانها.

وقد تختلف الرؤى بين العصور والأزمنة - لكن القيم الإنسانية العليا تظل مكانها باستمرار، ثم إنها فى كل عصر وزمن تحتاج إلى تجديد فى رؤاها يعبر عنها ويتلاءم مع أحوال متغيرة.

وعلى سبيل المثال فإنه عندما كان جمال عبدالناصر مُهْتَمًّا بمقاومة الاستعمار ودعم حركة التحرر الوطنى - فقد كان ذلك زمن وعصر مواجهة الإمبراطورية.

وعندما نادى بالاشتراكية وبتكافؤ الفرص والمواءمة بين الكفاية والعدل فقد كانت تلك أكثر صيغ الخلاص الاجتماعى قبولا فى قارات الأرض بغير استثناء.

وعندما سعى بالتخطيط المركزى لبناء المصانع وإصلاح الأرض وإقامة السدود - فقد كانت هذه وسائط التقدم تتسابق إليها شعوب الدنيا.

وعندما حلم بنوع من الوحدة بين الشعوب العربية - تُقَرِّر هذه الشعوب بنفسها مداه - فقد كان ذلك، إلى جانب تأكيده للهوية، مدخلا إلى أمن قومى تنسجم فيه عوامل القرب والقدرة - وكان ذلك دائما مطلب الأمة العزيز قبله وبعده.

وعندما شارك فى شق طريق يتخذ من سياسة عدم الانحياز تَوَجُّها نحو سلام قائم على العدل - فقد كان ذلك أمل شعوب هذا الكوكب

التى خافت على الحضارة الإنسانية أن يحرقها جحيم نووى غير متوقع وغير محسوب!

□

وحين يقول البعض الآن ـ وللقول منطق ـ أن الاستعمار لم يعد الشكل العصرى لقوى الهيمنة ـ فإنه يظل أن مطلب الحرية باق.

وحين يقولون أن الاشتراكية لم تثبت تفوقها ـ فإنه يظل أن مطلب العدل باق.

وحين يقولون أن زمن التخطيط المركزى تراجع ـ فإنه يظل أن مطلب التقدم باق.

وحين يقولون أنه الآن زمان الهويات الخاصة ـ فإنه يظل أن الفاعل الثقافى بكل مشتملاته من المنابع وإلى التجارب وإلى الطموحات مازال المحدد الأعظم للهوية ـ فإذا أضيف فعل الهوية إلى مطلب القوة والقدرة، إذن فإن درجة أو درجات من الأمل والعمل لنوع من وحدة الأمة باق.

وحين يقولون أن مجتمع الدول ترك سياسة عدم الانحياز وراءه ـ فإنه يظل أن جوهر تلك السياسة ـ موقف مستقل غير منحاز مسبقا فى قضايا الصراع وقضايا السلام ـ وهذا الموقف المستقل مازال مطلوبًا ولازمًا!.

ولكن التوازن الضرورى للأمم ولمراحل تطورها ـ يقتضى أمرين:

أولهما: الأمانة فى مراجعة ما صنعته وأضافته رؤى مُعَيَّنة فى عصرها وزمانها - ثم إضافة صافى حساب المراجعة إلى رصيد الأمة.

والأمر الثانى: بحث الضرورات المتغيرة والتى لا تنفع معها الرؤى السابقة - ثم مباشرة التجديد.

لكن ذلك لم يحدث، وبدلا منه جرت المحاولة لإنكار الأمس وإلغائه، ثم وقعت الهرولة إلى غد لم تُرْسَم بعد خرائطه.

وكذلك زاد الشد والجذب - والاحتكاك. والحاصل أن دور الرجل فى عصره وزمانه أصبح مدخلا إلى تطويق وحصار كل ما هو قابل للبقاء مما عبر عنه، وما هو قادر على أن يجد لنفسه تعبيرات متجددة تلهم وتقود فى عصور وأزمنة أخرى.

ومن ذلك فنحن أمام حرب - «من نوع جديد» - لها هدف مزدوج:

من ناحية حصار تجربة سابقة وتصفية آثارها إلى درجة محوها أو تحويلها فى الذاكرة من حلم إلى كابوس - ومن ناحية أخرى بناء تحصينات تحجز المشروع القومى العربى عن إمكانية تجديد نفسه والتلاؤم مع مستقبل من حق الأمة أن تتطلع إليه، وأن تقاربه بالفكر، وتستطلع مسالكها إليه بالفهم.

ولو تصورنا أن الماضى وحده هدف هذه الحرب - لابتعدنا عن الحقيقة وتناسينا شواهد، أولها أن هذه الحرب التى دارت ومازالت تدور ضد المشروع القومى العربى كما عبر عن نفسه فى الخمسينيات والستينيات

ومطلع السبعينيات - هى بأى معيار أكبر من أى فرد، خصوصا إذا كان هذا الفرد قد فارق الساحة قبل ثلث قرن تقريبًا.

□

والشاهد أن هذه «الحرب من نوع جديد» - هى حرب المستقبل، تدور معاركها حوله، وتدور فيه، وتدور عليه، وهذه «الحرب من نوع جديد» ينبغى أن تشغلنا، بل ينبغى أن تقلقنا لأنها تواجهنا بتحديات من نوع غريب.

فهذه «الحرب من نوع جديد» تستغنى بالكامل عن كل ما عرفه تاريخ الصراع من أشكال الحروب.

هى حرب مُسْتَغْنية عن بؤرة معينة - أرض أو موارد - تدور المعارك لاحتلالها أو لتأمينها، ثم هى حرب مُسْتَغْنية عن مسرح استراتيجى للعمليات له تخومه وتضاريسه، وهى كذلك حرب مُسْتَغْنية عن جبهة قتال محددة تنطلق أو تتوقف عليها النيران، وفوق ذلك فهى حرب لا تحتاج إلى السلاح أو قوة النيران.

يلحق بهذا أن هذه «الحرب من نوع جديد» يَصْعُب متابعة حركتها بما فى ذلك حساب خسائرها، فليست هناك جيوش تتقدم أو تتراجع، وليست هناك خسائر بشرية من القتلى أو الجرحى يمكن عدهم، كما أنه ليس هناك عتاد ومعدات يمكن حصرها.

وأخيراً. . فإن ذلك كله غير مرئى وغير منظور لأن هذه «الحرب من

نوع جديد» تَشْتَعِل وتحتدم فى عقول الناس وفى وَعْيِهِم وفى ضمائرهم ـ وأهم من ذلك فى ذاكرتهم ـ وهكذا فإن الإصابة فيها بصعق البرق وليست بطعن الجرح، والنزيف فيها ليس دما يسيل وإنما إدراكا يتسرب، ثم إن المنتصر فيها لا يستولى على جغرافيا وإنما يستولى على تاريخ، ولا يكتفى بحصار الواقع وإنما يحصر الخيال.

وهنا الخطر!

## حضرات السيدات والسادة

هناك مثل صينى يقول أنه «حين تغضب المقادير على إنسان فإنها تحكم عليه أن يعيش أوقاتًا مثيرة»، وأستأذنكم أن أختلف مع هذا المثل الصينى لاعتقاد مستقر عندى بأن المقادير لم تغضب وإنما رضيت ـ حين أتاحت لى ـ أن أعيش أوقاتا مثيرة.

إننى من جيل تفتح وَعْيُه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ـ منتصف الأربعينيات من القرن العشرين ـ ثم إنه كان لى الحظ أن أعيش إلى قرب نهاية ذلك القرن ـ وإلى قرب بداية قرن جديد هو القرن الواحد والعشرين ـ وألفية جديدة هى الألفية الميلادية الثالثة.

وتلك كانت أوقاتًا مثيرة بكل المعايير فى جميع مجالات العلوم وتطبيقاتها، والفكر السياسى ونظرياته، والطب الجسدى والنفسى ومعجزاته، وأساليب الحياة والسباق بينها على الجاذبية والقبول، والقوى

العظمى وصراعاتها للسيطرة على العالم، وتجمد ثلوج الحرب الباردة وذوبان هذه الثلوج، ومخاطر السلاح النووى وروادعه، والوصول إلى الفضاء والسفر فيه، ودُنْيا الإلكترونات - من الكمبيوتر إلى الإنترنيت، ومن الفاكس إلى التليفون المحمول، ومن بطاقات الائتمان إلى شاشات الفضائيات.

ولم تكن تلك الأوقات مثيرة فى مجالات التقدم الإنسانى الشامل وحده، وإنما كانت إلى جانب ذلك مرحلة باهرة فى قيمة الإنسان. فهذه الأوقات لم تشهد فقط ظهور أجيال من العمالقة أمسكوا بأعِنّة التاريخ، ولم تشهد فقط رجالا ونساء وضعتهم مواهبهم فى مصاف النَجوم - وإنما شهدت ما هو أكمل وأفضل من العمالقة والنجوم، وأعنى بذلك عقوداً إنسانية كبرى كميثاق الأمم المتحدة وما ألحق به فى مجال القانون الدولى، وميثاق «باندونج» وما أكده من حق الشعوب فى التحرر والتقدم، والإعلان العالمى لحقوق الإنسان وما كرَّمه من حقوق الحياة.

وكان العالم الثالث بالتحديد أكثر مناطق العالم إثارة فى تلك الأوقات المثيرة، فقد خرج بعد سكوت مدافع الحرب العالمية الثانية - يطلب الاستقلال، ويطلبه بمقاومة الاحتلال وليس بطلب عطفه كما حدث بعد الحرب العالمية الأولى، وكذلك بدت حركة التحرر الوطنى عاصفة لا تتوقف - من جنوب شرق آسيا المطل على بحر الصين إلى الشواطئ الأطلسية للمغرب العربى.

وخلال هذا كله كانت القاهرة منتصف المسافة من المحيط الهادى

فى الشرق إلى المحيط الأطلسى فى الغرب على هذه الناحية من الكرة الأرضية .

وكانت القاهرة على هذه المسافة هى الموقع الأكثر ازدحامًا بالأوقات المثيرة، فقد كانت المركز الأنشط فى حركة التحرر الوطنى، وكانت أهم القواعد لتجربة ضخمة للمشروع القومى العربى .

وكان من رضا المقادير أن أعيش عمرى وسط تلك الأوقات المثيرة من تجربة هذا المشروع، وكان من حظى أن أكون قرب حركته . وأن أعرف رجاله، وأن أرى بالعين المجردة نجومه، وأكثر من ذلك أن أشارك على نحو ما فى معاركه التى خاضها، خصوصا تلك التى دارت قبل مجىء هذه «الحرب من نوع جديد» .

□

قبل هذه «الحرب من نوع جديد» وخلال تلك الأوقات المثيرة، كانت الأمة العربية على معرفة وبَيِّنة مما تريد لنفسها، ومما يريده منها الآخرون .

وعندما تكون الأمم على معرفة وبَيِّنة مما تريد فإنها تُدْرك ـ حتى فى حالات الإرهاق والإعياء ـ كيف تَصُدُّ عن نفسها وكيف تَرُدّ .

وإذا أذنتم لى فسوف أسترجع معكم مشاهد من تلك الأوقات الأكثر إثارة، ولعلها تحكى شيئًا عن موقف الأمة فيما أرادته أو فيما أراده منها الآخرون .

* المشهد الأول ـ بين هذه المشاهد ـ جرى فى ذلك اليوم الذى تحتفلون فى ذكراه الآن بجائزة جمال عبدالناصر : يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ .

فى الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم، وفى بيت فوق ربوة تطلّ على بحر الإسكندرية عند شاطئ «جليم»، وكان جمال عبدالناصر قد استأجر هذا البيت لتقضى أسرته بعضًا من شهور الصيف فيه ـ كنت هناك على موعد مُبكِّر معه، وجلست أستمع إلى تصوره لسياق خطابه الذى قرر أن يعلن فيه تأميم قناة السويس .

وبينما جمال عبدالناصر يفكر وبصوت عال أمامى وصل فى حديثه إلى التساؤل عن دور جماهير الأمة فى معركة رآها قادمة، وكان تقديره أن «فعْلَ» الأمة أساسى فى موازين الصراع ـ لكنه فى تلك الساعة المُبَكِّرة من صباح يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ لم يكن فى وضع يسمح له بالقياس ولا بالحساب الدقيق مُسْتَندًا إلى هذا القياس .

وعندما بَدَأت المواجهة وقد تحوّلَت إلى مؤامرة، ثم تحوّلَت المؤامرة إلى حرب، فإن «فعْلَ» الأمة لم يكن أساسيًا فى موازين الصراع فحسب . وإنما كان هذا الفعْل هو العنصر الحاسم الذى أحاط الوقفة الشجاعة للشعب المصرى بنطاق من الفولاذ، ثم إنه، وبطريقة مباشرة، كان المُحَرّك العملى لحقائق الموقف الدولى بما فى ذلك ما استدعاه من تضامن عالمى مع الشعب المصرى .

إن العدوان الثلاثى اضطر إلى التراجع .

وكان الأهم من تراجعه أن السويس لم تصبح انتصارا مصريًا فقط، وإنما أصبحت تَدَفُّقًا لتاريخ مُتَجَدِّد فى المنطقة اندفعت فيه دون تحفظ تيارات الوطنية المصرية إلى مجرى القومية العربية.

ذلك هو المشهد الأول.

وإن كان علىّ قبل أن ابتعد عنه تقديم اعتذارى إلى بعض الأصدقاء الذين يتفضلون بتوجيه النصح هذه الأيام بأن نكف عن الحديث عن «نظرية المؤامرة» لأنها فى تقديرهم قُصور فى الفكر وهروب من المسئولية، على أن عُذرَنا أمامهم أن الذين رَتَّبوا عدوان السويس هم الذين سَمُّوه قبل غيرهم بـ«المؤامرة»، وبالإضافة إلى ذلك فقد نضع تحت عنايتهم توصيف قاموس «أوكسفورد» الكبير للمؤامرة باعتبارها «اتفاقا غير مُعْلَن بين طرفين أو أكثر للإضرار بمصالح أو أمن طرف غيرهم»، وذلك ما حدث تماما فى السويس، وهو لم يحدث بمجرد اتفاق غير مُعْلَن وإنما بنص سرِّىٍّ مكتوب وَقَّعه الأطراف وأخذ كل منهم نُسْخة بتوقيع شركائه فى المؤامرة، ووضعها فى جيبه وليس فى ملفات الدولة.

واتصالا بذلك فإنه يَصْعُب تَجاهُل وثائق أمريكية تكشف أن رؤساء أمريكيين أصدروا أوامر بقتل رجال مثل «محمد مُصَدِّق» فى إيران، و«أحمد سوكارنو» فى إندونيسيا، و«فيدل كاسترو» فى كوبا، و«جمال عبدالناصر» فى مصر، و«باتريس لومومبا» فى الكونجو، و«سلفادور الليندى» فى شيلى، و«معمر القذافى» فى ليبيا، وغيرهم - وحين تَظْهَر

هذه الوثائق ـ خصوصًا بعد نجاح تنفيذ معظمها ـ فإنه من العسير اعتبار طلقات الرصاص أو جرعات السم بطاقات دعوة إلى حفل تكريم!

. . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . . .

* وكان المشهد الثانى لقاء فى الساعة السابعة والنصف من صباح يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ مع جمال عبدالناصر فى الدور الأرضى من بيته فى منشية البكرى، وقد جلست أصغى إليه يستعيد وقائع مُزعِجة جرت فى الأيام القليلة السابقة ـ وقراره بعد جلسة تكاثفت المشاعر فيها إلى حد شديد الوطأة ـ أن شعوره بالمسئولية يُمْلى عليه أن يَتَنَحّى ـ فورًا ـ عن رئاسة الدولة، ويعود إلى الصفوف مُحارِبًا وجاهزًا للذهاب إلى الميدان مُقاتِلاً.

وكان طَلَبُه وقد سمعت منه ما سمعت أن أكتب خطابه إلى الأمة يُعْلِن لها ما توصل إليه. وأشهد أنه كان واثقًا أن الأمة سوف تقبل قراره، وأكثر من ذلك سوف تُرَتِّب عليه عواقبه.

وعندما وصل القرار إلى أمة تعرف ما تريد كان جمال عبدالناصر أول مُسْتَغرِب مَدْهوش لرفض الأمة تَنَحّيه. والذى حدث فإن الأمة طلبت إليه أن يَظل فى موقعه، وأن يبدأ الاستعداد من جديد، وأن يحشد ويعود إلى ميدان القتال ـ وقد فعل.

ولم يسكت هدير المدافع على جبهة القتال غير ساعات ـ من ٩ يونيو

إلى ١١ يونيو بالتحديد ـ ثم تداخل هدير المدافع مع حرب الاستنزاف متواصلا إلى موقعة بناء حائط الصواريخ تمهيداً لحماية قوات العبور، ومن هناك إلى خطة «جرانيت ١»، ثم إلى خطة «بدر» التى تم وضعها بعد رحيل جمال عبدالناصر واعتمدها خَلَفُه.

. . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . . .

* كان المشهد الثالث لقاء مع أنور السادات امتد على طول نهار ٥ سبتمبر ١٩٧٣ فى استراحة «كنج مريوط» على منتصف الطريق من العامرية إلى برج العرب فى صحراء مصر الغربية. وفى النصف الأول من النهار كان أنور السادات يحكى عن ضياع آماله فى حل سلمى، ثم يصل فى النهاية ـ وبشجاعة تستحق الإعجاب ـ إلى حتمية اللجوء للسلاح. وفى النصف الثانى من النهار كان طلبه ـ وعلى أساس ما سمعت منه ـ أن أقوم بكتابة أمره إلى الفريق «أحمد إسماعيل على» القائد العام للقوات العربية المشتركة بتحديد الهدف الاستراتيجى لمعركة أكتوبر ١٩٧٣ سواء على جبهة سيناء أو جبهة الجولان، وكان الأمر هو «العمل بالقوة المسلحة على كسر نظرية الأمن الإسرائيلى لأن ذلك يفتح المجال ليس فقط لإزالة آثار عدوان سنة ١٩٦٧ ـ وإنما لإنهاء منطق ساد فيه تصوُّر عن قُدْرة إسرائيلية غير محدودة على فرض الأمر الواقع حيث تشاء من أرض الأُمة العربية».

وبضرورات الأشياء فقد كان الفِعْل العربى العام، وحجم هذا الفِعْل

على المستوى القومى لحظة تَحَرُّك السلاح ـ بين أهم شواغل أنور السادات طوال ذلك النهار ـ فقد كان يعرف أن طول حالة اللا سِلْم واللا حرب أحدثت آثارها بالتآكل فى ثقة الناس حتى بإمكانية القتال ـ رغم كل ما أعطته الأمة من جهد وما قدمته من تضحيات.

على أن القتال لم يكد يبدأ فى الساعة الثانية بعد الظهر من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ـ ثم يتأكد أن جسور العبور المصرية امتدت على قناة السويس، وأن كتائب المدرعات السورية انطلقت نحو بحيرة طبرية ـ وإذا الأمة كلها، وبكافة قواها ومواردها، متدافعة موجات بعد موجات إلى ساحة المواجهة الشاملة، عسكرية واقتصادية وسياسية ومعنوية.

وبصرف النظر عن أى شىء وعن كل شىء ـ فإن الهدف الاستراتيجى لمعركة أكتوبر ١٩٧٣ تحقَّق وانكسرت نظرية الأمن الإسرائيلى. وأُضيفُ على الهامش أننى حضرت مقابلة أنور السادات والجنرال «أندريه بوفر»، وهو واحد من أكبر الخبراء الاستراتيجيين فى العصر الحديث، وكان قول «بوفر» لأنور السادات فى حضورى: «لقد حققتم ما أردتم ولو حتى كرسالة إلى المستقبل» ـ وكان ذلك تشخيصًا دقيقًا من خبير يعرف ما يقول.

### حضرات السيدات والسادة

إننى بهذه المشاهد الثلاثة لم أكن أقصد إلى رواية حكايات من عصر

أوقات مثيرة، وإنما كنت أريد أن أصل بعد الرواية والحكاية إلى استنتاجات تعرض نفسها على أى مُهْتَمٍّ باستقراء الحوادث :

١ ـ إن هدف الآخرين فى السويس سنة ١٩٥٦ ـ كان على وجه التحديد نزع استقلال دولة عربية هى مصر .

إن مصر كانت قد حققت استقلالها بجلاء قوات الاحتلال البريطانى عن أراضيها قبل شهر واحد من تأميم قناة السويس .

وعندما اكتشفت قوى السيطرة أن الاستقلال المصرى كان مقدمة لها ما بعدها ـ فإن القوة المسلحة البريطانية الفرنسية الإسرائيلية ـ دخلت لتقوم بمهمة نزع استقلال مصر بعد أن زعمت لنفسها أن مصر باجترائها على تأميم قناة السويس لا تستحق الاستقلال وليست مُؤَهَّلة له .

وعندما ظهر موقف الأمة وبان فى كامل جلاله فإن قوى السيطرة تَعَلَّمَت دَرْسًا مُخْتَصَره : «أن هذا الذى حدث ـ أى موقف الأمة درع فولاذ حَوْلَ أحد أوطانها ـ فى السويس لا ينبغى له أن يتكرر .

٢ ـ ومن هذا الدرس فإن هدف قوى السيطرة سنة ١٩٦٧ ـ لم يَكُن نزع استقلال بلد، وإنما نزع سلاح أمة، باعتبار أن السلاح المصرى دعامة الترسانة العربية .

والمفاجأة التى واجهت جميع الأطراف هى أن ما حدث فى السويس تكرر، وأن الأمة صَمَّمَت على المقاومة، وكان الظن ـ بعد ما حدث صباح ٥ يونيو ـ أن الأمة لن تتجاسر على العودة للقتال ـ لكن الأمة تجاسرت وعادت بعد ساعات إلى الميدان .

٣ ـ ثم جاء أكتوبر ١٩٧٣ وفيه أكدت الأمة وعلى نحو قاطع أن محاولة نزع سلاحها لم تنجح، تماما كما حدث لمحاولة نزع استقلال وَطَنٍ من أوطانها.

وهنا مشت قوى السيطرة إلى أبعد: لم يعد طلبها نزع استقلال وطن، ولم يعد طلبها نزع سلاح أمة ـ وإنما أصبح الطلب نزع إرادة أمة.

وهكذا بدأت هذه «الحرب من نوع جديد».

وكانت الظروف مهيأة لأن المناخ الإقليمى والمناخ العالمى كلاهما راح يتغير لأسباب كثيرة.

### حضرات السيدات والسادة

إن الناس لا يعيشون الأوقات المثيرة بالمشاركة فى أحداثها وبمعرفة أشخاصها ونجومها فقط، بل إن الناس يعيشون ذات الأوقات المثيرة عن طريق الانشغال بها.

وهكذا فإنه منذ بداية سنة ١٩٧٤ ـ وكنت قد تَحولّْتُ راضيًا من مُشاركٍ قريب إلى متابعٍ من مسافة لم أكن أريد اختصارها ومازلَت ـ شعرتَ مبكراً بهمسات ولمسات هذه «الحرب من نوع جديد» ـ لكنى أبالغ إذا قلت إننى فى ذلك الوقت رأيت ما هو أكثر من إشارات وعلامات. ومع الأيام والشهور والسنين بَدَأت الإشارات والعلامات تَتَحَوَّل إلى ظلال وصور.

* كانت البداية ـ كما أسلفت ـ إشارات وعلامات.

وكانت أهم الإشارات إلى صفقة.

وأهم العلامات إلى قناة.

. . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . . .

* وبالنسبة للصفقة فقد طُرِحَت على أنها «الأرض مقابل السلام»، والغريب أن أول ذكر لها كان إشارة فى محاضر الوكالة اليهودية قبل حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، وجاءت هذه الإشارة ضمن سياسة تهدف إلى ردع مصر عن الاشتراك فى تلك الحرب أو إخراجها منها إذا دخلتها.

وكانت فى ذلك الوقت صيغة طرحها «دافيد بن جوريون» تقضى بالاستيلاء على جزء من الأرض المصرية يُرْتَهَن فى مقابل توقيع مصرى بالتخلى عن قضية فلسطين أو الخروج من الصراع على مستقبلها.

ويبين لنا أنه حتى من قبل قيام الدولة اليهودية فقط ظهرت التفرقة بين أرض تدخلها إسرائيل وتتملكها، وأرض تدخلها إسرائيل وتُقايِض عليها.

ولقد عاد «بن جوريون» إلى ذلك الشعار وسَجَّله فى محاضر مجلس الوزارء الإسرائيلى فى أواخر سنة ١٩٥٥ - وكان مقصده احتلال جزء من الأرض المصرية فى مقابل أن تَتَوَقَّف مصر عن شراء السلاح السوفيتى، وتقبل فى نفس الوقت بمبدأ الصلح مع إسرائيل.

وفى ظروف ما بعد أكتوبر ١٩٧٣ فإن صفقة «الأرض مقابل السلام» أعيد طرحها بإلحاح واضح، وإن لم يظهر فى ذلك الوقت أن هذه الصيغة خطوة فى هذه «الحرب من نوع جديد».

* وأما بالنسبة للعلامة - فإن «قنوات الاتصال السرية» التى عُرِفَت بين الدول من قديم، وشاع استعمالها زمن الحرب الباردة - أعيد تَعميقها وتَحَولَّت فى أزمة الشرق الأوسط دون أن يَتَنَبَّه أحد إلى قناة مخابرات. وأتذكر أنه عندما زادت الحركة بشكل ملفت على «قناة الاتصال السرية الموازية» بين القاهرة وواشنطن، فقد سَمَحْتُ لنفسى أن أسأل الرئيس السادات عن ذلك التدفق النشيط والمتسارع فى مجراها؟ وكان تصوره أنه بواسطتها على اتصال بالرئيس «ريتشارد نيكسون» مباشرة. ثم اكتشف الرئيس السادات بنفسه أن الناحية الأخرى من «قناة الاتصال السرية الموازية» كانت مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

وكانت تلك نقلة خَطِرة، لأنه حين تذهب قضايا الحرب والسلام لتُصبح عمليةً فى دهاليز مَخابرات - فإن احتمالات الخلط بالغة الخطر.

* وكانت الخطوة الثانية بعد الإشارات والعلامات الأولى محاولة فى ترويض الثقافة تبدأ من التَحكُّم فى المصطلح.

كانت العادة دائما أن المصطلح دلالة تعبير عن فكرة، ثم توصلت فنون الحرب النفسية إلى أن المصطلح قد يكون أداة تغيير فى فكرة خصوصًا عندما يتكرر وتتعود عليه الأسماع والأفهام!

وهكذا راحت تتردد مصطلحات من نوع «إنها آخر الحروب»، و«إن السلام خيار استراتيچى»، و«إنه الآن - على حد تعبير اسْتُعير من «جورباتشوف» - يمكن أن يحل توازن المصالح محل توازن القوى».

وبالتأكيد فإن الحرب ليست ضرورية، ولكن الضرورات قد تفرض الحرب.

والسلام فى حد ذاته يستحيل أن يكون خيارًا استراتيچيًا، وإنما الأمن هو المطلب الاستراتيچى، ويتحقق السلام إذا تحقق الأمن - وذلك منطق الأشياء.

ثم أنه ليس مفهومًا على وجه التحديد كيف تتوازن المصالح بالتطوُّع والإحسان!

إن إسرائيل سمعت هذه المصطلحات بالطبع ولم تستعملها لنفسها، ولكن هذه المصطلحات الجديدة راحت تستهوى الجانب الخطابى فى العقل العربى، خصوصا وأن وَقْعَها وصداها كان له بريق ورنين يشيع إحساسا بالجِدّة والحداثة!

وهكذا راح المصطلح يغير الفكرة - وكانت تلك حركة أخرى فى هذه «الحرب من نوع جديد».

* وكانت الخطوة الثالثة هى الانتقال بالإشارات والعلامات من التلميح إلى شبه التصريح، وكذلك بدأت الدعوات إلى ضرورة «كسر الجليد»، والتقاء «الغريب بالغريب»، وتعرُّف «الفكر على الفكر».

وفى هذا الإطار جرى الترتيب لندوات فكرية وعلمية وثقافية تلتقى فيها أطراف من هنا وهناك حتى يستطيع «الآخر أن يفهم الآخر».

وكان التركيز فى تلك الفترة على المثقفين العرب؛ لأن المثقفين فى كل مجتمع هم «جيوش الضمير» فيه، وكان الضمير هو الـمُسْتَهْدَف الآن! ولم تكن الدعوات للقاءات «كَسْر الجليد»، والتقاء «الغريب بالغريب»، وتَعَرُّف «الفكر على الفكر» - إسرائيلية، وإنما بدأت أمريكية أوروبية، وقد أحاطتها فى البداية مراسم أكاديمية توحى بالنزاهة العلمية، وكان ذلك إغراءً لكثيرين من المثقفين أحسوا أن متغيرات كثيرة طرأت بعد علمهم، وأنهم الآن ربما أمام فرصة للتعويض.

ومع أن كلفة ترتيب مؤتمرات واجتماعات على اتساع عواصم العالم بلغت مئات ملايين الدولارات فإن هدف الاتصال بالفكر العربى، بكل ما فى الاتصال من فرص التلقيح والتزهير - كان استثمارا مفيداً يعوض كلفته ويزيد.

* وكانت الخطوة الرابعة تغيير الإجراءات بقصد زحزحة القوانين المتعارف عليها فى إدارة صراعات الحرب، وهكذا فقد أصبح على ميدان القتال نفسه أن يكون مَوْضِعًا لمحادثات بهدف فك الاشتباك، ثم أن فك الاشتباك يعقبه اتفاق مؤقت، والاتفاق المؤقت لا يؤدى إلى انسحاب قوات احتلال وإنما إلى إعادة تمركز قوات، وإعادة تمركز القوات بداية للتفاوض على إطار للحل، لكنه بين إطار التفاوض ومفاوضات الحل إجراءات مطلوبة لخلق الثقة ولإثبات حسن النية

وصدق العزم، وعندما يجىء دور الحل إذا نجحت المفاوضات ـ فإن هذا الحل يجرى تنفيذه خطوة بعد خطوة، وبين كل خطوة وأخرى إجراءات زائدة لتأكيد الثقة ـ وهكذا تحدث إذابة الصراع قبل التعرض لكتلته.

* وكانت الخطوة الخامسة وضع منهج للحركة يأخذ لنفسه باستمرار الممارسة ـ قوة العادة.

فهناك حركة دفع من الضرورى أن تستمر، والمسئول عن توفيرها بالطبع هو الطالب وليس المطلوب منه.

وهناك ضرورة إعطاء الضمانات قبل الوفاء بالتعهُّدات.

وكذلك يتحول السلام إلى عملية، وتتحول العملية إلى مسيرة.

وتصبح العملية حلقات مغلقة، وتتوالد من المسيرة مسارات تنفصل فيها الأطراف العربية عن بعضها، وتتسابق، وربما تتعارض، والمهم فى أى مسار ـ أن يسير.

ثم كان أن أصبح بديل المفاوضات هو المزيد من المفاوضات، وإذا لم يعد بديل المفاوضات غير مزيد من المفاوضات ـ فإن التفاوض فى حد ذاته تصبح له أفضلية على موضوعات التفاوض، ثم أن التفاوض فى حد ذاته يصبح مودة وألفة لا يصح أن تتوقف عند التعقيدات والأزمات، بل إن الـمَخْرَج من هذه التعقيدات والأزمات زيادة فى المودة والألفة!

* وكانت الخطوة السادسة تغيير المرجع الذى يرعى التفاوض، وقد بدأت

عـملية تغيير المراجع نقلة جغرافية انتقل بها مركز الاتصالات والمحادثات والمفاوضات من مدينة إلى مدينة أخرى ـ وبدا ذلك بريئًا .

فالمسافة بين نيويورك وواشنطن نصف ساعة بالطائرة ، لكنها فى سياسة ماشية على الأرض لا تطير ـ مسافة شاسعة لأن نيويورك هى الأمم المتحدة ، وواشنطن هى الولايات المتحدة .

ثم لحق بتغيير المرجع تغيير المرجعيات ، وكان ذلك منطقيًا ، لأن مرجعيات الولايات المتحدة لها مطالب وشروط بمقدار ما أن مرجعيات الأمم المتحدة لها مبادئ وضوابط .

وكذلك أصبح الحل أمريكيا ٩٩ فى المائة . .

وكذلك يصبح السلام ، أو لابد أن يصبح .

* وكانت الخطوة السابعة تغذية الأوهام العربية ، ذلك أن الرئيس الأمريكى الذى تملك بلاده قرب مائة فى المائة من أوراق الحل يحتاج من العرب أن يُقْرضوه أرصدة سياسية تكفيه حتى يُنْتَخَب أو يعاد انتخابه ـ وبعدها يُسَدِّد دينه .

ويَسْعَد العرب بتسليف رئيس أمريكى ، لكن الرئيس الأمريكى لا يُسَدِّد لأنه حين ينجح فى الانتخابات يجد نفسه ـ شاء أو لم يشأ ـ مسئولا عن أرصدته وليس ديونه !

وزاد اتساع الأوهام عندما بدأ الساسة الكبار فى القوى العظمى يطلبون المساعدة المالية من العرب لدعم اقتصاد بلادهم كما فعلت دول

أوروبية كبيرة، أو بحجة أن «برلماناتهم لا تأذن لهم باعتمادات يريدونها للعمل بغير قيود فى مناطق قريبة وبعيدة، والعمل فى هذه المناطق مهم للطرفين ـ للغرب وللعرب»!

وحينما يدخل ملك أو رئيس، أمير أو وسيط من العرب ـ إلى مواقع السلطة العليا فى عواصم الغرب مانحا قروضا أو ودائع، أو حاملا مُساهمات وهبات بملايين الدولارات، فمن المؤكد أن ذلك سوف يصحبه إحساس زائف بشدة النفوذ.

وتزايدت الأوهام إلى حدود تصوّرت فيها بعض الأطراف العربية أنها قادرة على التدخل فى الانتخابات الأمريكية، والأوروبية، والإسرائيلية أيضا.

وكانت تلك ألعابًا فى الوقت الضائع كما يقول تعبير رياضى شائع.

* وكانت الخطوة الثامنة أنه دون أن يَتَنبَّه أحد ـ فإن عملية التفاوض أخذت منحنى مختلفًا ـ كما أن جدول أعمالها انتقل من نقيض إلى نقيض.

- لم يَعُد التفاوض تحت بند أن يعترف العرب بحق إسرائيل فى الوجود، وإنما تحت بند أن تعترف إسرائيل بحق العرب فى الوجود.
- ولم يَعُد التفاوض تحت بند استعادة أرض فلسطينية، وإنما تحت بند استكمال أرض إسرائيل.
- ولم يَعُد التفاوض تحت بند منع الأسلحة الاستراتيجية فى الشرق الأوسط، ولكن تحت بند منعها فى العالم العربى وحده.

ـ ثم كان أن أُزيحَت الصيغة المقترحة بالإشارات والعلامات فى بداية هذه «الحرب من نوع جديد» وهى صيغة «الأرض مقابل السلام» ـ لكى تحل محلها صيغة «السلام فى مقابل الأمن» : العرب يعطون السلام، وإسرائيل تعطيهم الأمن.

* وكانت الخطوة التاسعة وهى موصولة بتغيير المراجع والمرجعيات ـ توسيع وتعميق ومد نشاط حلف الأطلنطى ـ تحت قيادة أمريكية ـ إلى منطقتين رأتهما قيادة الحلف امتدادا مكملا لأمنه المباشر، وهما منطقة البلقان (وفى وسطها يوغوسلافيا السابقة) ـ ومنطقة البحر الأبيض (وحولها كل الدول العربية شطآنًا ووديانًا وصحارى).

ولقد اقتحمت أمواج الأطلنطى منطقة البلقان، ودفعت، وأزاحت.

والبحر الأبيض مهمة قادمة على الطريق فى تصور سياسى يريد أن يرتب وينظم.

وهذا التصور فى عجلة من أمره، لأنه لا أحد فى حلف الأطلنطى ـ وقيادته الأمريكية ـ لديه الوقت لمراعاة عقد التاريخ، أو التردد أمام تعقيدات سياسية تجمعت كوما فى القرن العشرين، أو التحسُّب لعواطف شارع عربى خمدت حماسته، أو الحرص على حساسيات أصدقاء لم تثبت قدرتهم على العزم والحسم، وبالتالى فإن ما لاتستطيع موائد المفاوضات أن تحققه يمكن لجرافات العنف أن تزيحه ـ أو هكذا الظن!

□

طوال هذا كله وخلاله فإن الحملة على المشروع القومى العربى تعالت واشتد صخبها، وأعيد رسم صورة التجربة بأثر رجعى استعار من زمن الحرب الباردة وسائلها وأساليبها ومفرداتها وبعض أشباحها.

إن تلك التجربة للمشروع القومى العربى لم تكن معصومة، لأنها شأن كل تجربة غيرها فى التاريخ محاولة إنسانية، وكل إنسانى نسبى. ثم إن هذه التجربة لم تقع فى فراغ وطنى أو قومى أو عالمى، وإنما وقعت وسط تراكمات تجمعت من بعيد ومن قريب فى ظرف دولى شديد الزحام، وفى أجواء عالمية كانت فى بعض الأحيان معبأة بالتوتر إلى درجة الاحتقان.

لكن هناك مساحة واسعة بين التحقيق فى أخطاء تجربة لا بد أن تُوْضَع فى سياقها ولا بد أن تُقاس بالمقارنة مع غيرها فى زمانها وقبل زمانها وبعد زمانها - وبين الإدانة قبل التحقيق، والحُكْم قبل المحاكمة!

ومن المفارقات أنه أريد للأمة - ولا يزال يُراد لها - أن تعيش حالة انفصام بين توقيتين وانفصال بين زمنين، والحياة فى نفس اللحظة مضبوطة على ساعتين:

- ساعة نفسية انكسرت وتوقفت عقاربها عن الدوران فى الساعة الثامنة والثلث من صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧.

- وساعة زمنية دارت وتحرَّكت إلى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، واستمرت عقاربها بعده حتى الآن، ثم أن دقاتها كل عام نشيد!

ومن الصعب تصور أن يعيش كيان حى ذات العمر ـ على ذات خط الطول ـ مصلوبًا بين توقيتين أحدهما يزرع مسمارًا فى كفِّه على اليسار، والثانى يَدُقُّ مسماره على كَفِّ اليمين!

ومن المفارقات أن استعارة صورة الحرب الباردة وصلت إلى درجة تشويه الصفحة الثقافية للتجربة.

ونسى البعض أن أهم الجوائز العالمية فى الأدب أُعْطِيَت لأعمال عربية قصدت بالتحديد إلى نقد التجربة، ولم يكن نقدها بَعد أوانه وإنما جاء ذلك النقد فى الأوان ذاته. وهذه الأعمال تبقى وحتى هذه اللحظة فريدة غير مُتكرِّرة لا من أصحابها الذين كتبوا فى حينه ثم سكتوا بعدها، ولا من غيرهم ممن لم يكفّوا عن الكلام حتى الآن!

ونسى البعض أيضًا أن فترة تلك التجربة شهدت تأسيس نهضة ثقافية حقيقية تحظى بتقدير عال حتى اليوم ـ لكن هذا التقدير يتم خارج إطار أى زمن، والمنطق أنه إذاً استحال إنكار هذه النهضة الثقافية فإن الاعتراف بها لا يمنع تجاهل نسبها.

وربما تَذَكَّر بعضُنا أن صوت الموسيقى فى عصر ما ـ تذكرة بروح هذا العصر لا تُخطئ ـ ذلك أن الموسيقى لا تخضع بالطبيعة لقَمع أو رقابة ـ ومن اللافت للنظر أن صوت الموسيقى فى عصر تلك التجربة للمشروع القومى ما زال وحتى هذه اللحظة هو النغم الـمُسْتَعاد من الناس والمطلوب. والثابت أن شهادة الثقافة والفنون على عصورها شهادة صادقة ولا تستطيع أن تكذب لأنها تحقق دورها فى حوار مجتمعاتها فى

حالة الصدق وحده. لكن هناك من يريد أن تَتَذَكَّر الأمة أمْسَها ساخطة عليه، وتكون تلك مُقَدِّمة لأن تنظر الأمة إلى غدها مكتئبة منه.

□

وعند هذه النقطة فإن علينا أن نتوقف ونواجه حاضرنا بسؤال: هل نجح المطلوب من نزع إرادة الأمة؟

وهل تحقق فعلا ما كان مستهدفًا بعد السويس (عندما أحاطت شعوب الأمة درْعًا من الفولاذ بواحد من أوطانها) ـ وهل صحيح أن ذلك لم يعد قابلا للتكرار كما تَرْغَب قوى السيطرة وتطلب ـ أو أن الإرادة العربية ما زالت فيها بقية إرادة كامنة؟

وهنا يطالعنا المشهد العربى العام على خط يمتد من بغداد إلى الرباط، مُوحيًا بأن المطلوب تحقق.

لكن هناك مشهدًا بعينه يبرز أمامنا فى عواصم ومدن عربية كثيرة يُومئ إلينا بأن المطلوب لم يتحقق، وأن إرادة الأمة تتنفس بدليل أن شعوب الأمة تقاوم محاولات تطويع إرادتها، بما فى ذلك تطبيع لا تقبله فى العلاقة مع إسرائيل.

ثم تظل الموازين مُتأرجحة على حافة خطرة ـ بينما هذه «الحرب من نوع جديد» تواصل ضغوطها على أعصاب الأمة العربية، وبالتركيز على تاريخها، وذاكرَتها، ووَعْيها، وفكرها ـ وتلك هى ميادين القتال فى هذه «الحرب من نوع جديد».

إننى حـريص على هذه الجـائزة مـعنويًا . حـريص على هذا الحـفل عاطفيًا . حريص على هذا الموقع سياسيًا . وكذلك فإننى أتوقف هنا دون أن أثقل بزيادة ، لكننى إذا اكتفيت بالتأكيد من جديد أنها حرب حول المستقبل العربى ، وفيه ، وعليه ـ وأن هدفها هذه اللحظة «نزع الإرادة العربية» ـ فقد ترون أن الجملة غير مفيدة .

وعلى ذلك ، وفى سبيل جعلها جملة مفيدة ـ وعملية أيضًا ـ فقد يكون الحل أن أرجوكم فى إلتفاتة لمجرد النظر إلى الناحية الأخرى من الخطوط أو الحدود ، وسوف نجد ظواهر نتمنى صادقين أن يدرسها ويتأملها أصدقاء لنا معجبون بما يجرى على الناحية الأخرى ـ طالبون منا أن نتعلم من هناك ونقتدى .

. . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . . .

ـ على الناحيـة الأخـرى من الخطوط أو الحـدود محـاولة قـام بهـا مهاجرون من تسعين جنسية هدفها خلق وصياغة مشروع قومى واحد .

ـ وهذا المشروع لا تسنده غير خدمة علم لم يكن موجودًا قبل نصف قرن ، وغير لغة قديمة كادت تندثر ثم أعيد بعثها وإحياؤها لتكون عمادًا لثقافة مشتركة تضفى ما تضفيه الثقافة الواحدة من عناصر التماسك والوحدة فى مجتمعاتها .

ـ وهذا المشروع يجرب تحويل مجموعة من المستوطنات إلى دولة.

ـ وبرغم ما يقوله البعض عن المستجدات، وموت فكرة السيادة، وموت فكرة الحدود، وموت فكرة الدولة، وموت فكرة السياسة، وموت فكرة الحرب، بل وموت فكرة الأمة من الأصل والأساس ـ فى زمان العولمة ـ فإنهم على الناحية الأخرى ـ وهم الأقرب بالماضى اليهودى إلى روح العولمة، والأقرب بالحاضر الإسرائيلى إلى وسائل هذه العولمة ـ ما زال همهم السيادة والحدود والدولة والسياسة والأمة!

ـ ثم إن شواغلَهُم مركَّزة بالتحديد الآن حول الأرض للدولة، والحدود للدولة، ومصادِر المياه للدولة، والسلاح ـ تقليدى وغير تقليدى ـ لجيش الدولة. ثم أن الأمن دوائر تبدأ من قلب الدولة إلى وسطها، وإلى حدودها، وإلى جوارها، وإلى محيط ذلك الجوار ـ وحتى خط الأفق هناك *وراء إيران وتركيا*، *ووراء باكستان والهند*، *ووراء البحر الأبيض* والمحيط الأطلسى أيضًا.

ـ واعتقادُهم هناك ـ الآن ـ أن المشروع الصهيونى للدولة طليعة وقاعدة لمشروع قومى ليهود العالم فى شتات بينه وبين بعضه مسافات ـ ومع أن الجامع لهذا الشتات دينى، ولحقت به على مَرِّ القرون حواش وذيول من الخرافة ـ فإن ذلك المشروع الصهيونى يحاول بعد تحقيق الدولة أن يصنع من الشتات سبيكة أمة واحدة نصفها فى وطنها ونصفها الآخر فى سفر مؤقت خارجها وحقه فى العودة إليها مكفول بالقانون.

وكانت الذاكرة أهم سلاح لديهم فى كل هذه الدعاوى والتصورات والشواغل والمعتقدات، وقد وصلوا إلى حدّ تحويل الأساطير إلى تاريخ، وتحويل ادعاء التاريخ إلى استراتيجية، وتحويل الاستراتيجية إلى سياسة تصطنع حقائقها وتفرض نفسها بأسلحة القتل وليس بأجنحة الفراش - أو أجنحة الحمام.

وبرغم علاقة خاصة مع الولايات المتحدة - فإن إسرائيل وعلى لسان رئيس وزرائها أثناء زيارته الأخيرة لواشنطن قبل أيام - كان حريصًا على أن يعلن وبلهجة لا تخلو من صلافة أن إسرائيل لا تريد الولايات المتحدة شريكًا فى مفاوضاتها للسلام مع العرب، ولا تريدها وسيطًا فى هذه المفاوضات، ولا تريدها طرفًا مشغولاً بنجاحها إلى حدّ يجعلها تعرض أو تقترح - لأن مثل ذلك يحمل شبهة التدخل فى إرادة دولة إسرائيل!

ورئيس وزراء إسرائيل الحريص على هذه الإرادة - يعلم أن كل فرد فى إسرائيل يحصل على قرابة ألف دولار كل سنة من المساعدات الأمريكية رسمية وأهلية - إلى جانب أن سلاح إسرائيل بالكامل منحة من واشنطن، وأن مصانع السلاح المتطورة فى إسرائيل تعيش على عقود أمريكية، إلى جانب أن ٨٠٪ من صادرات إسرائيل ذاهبة إلى الولايات المتحدة.

لكن رئيس وزراء إسرائيل يريد أن يُنَبِّه كل الأطراف إلى أن هذه الدولة الطارئة على مجتمع الدول عند منتصف القرن العشرين، والتى عاشت ولا تزال على كرم أمريكى غير محدود - تعرف أهمية أن لا تسمح لأحد أن يلمس إرادتها فضلا عن أن ينزع هذه الإرادة.

وفى المحصّلة النهائية فإن إسرائيل ليست بعيدة ـ بل هى قريبة من حلف الأطلنطى ومن قيادته ومن خططه فى البحر الأبيض وشطآنه وأوديته وصحاريه!

ولقد طرحت ذلك كله ـ ولا أظن أننا جميعا بعده نحتاج إلى مزيد، بقصد استكمال جملة مفيدة.

**حضرات السيدات والسادة**

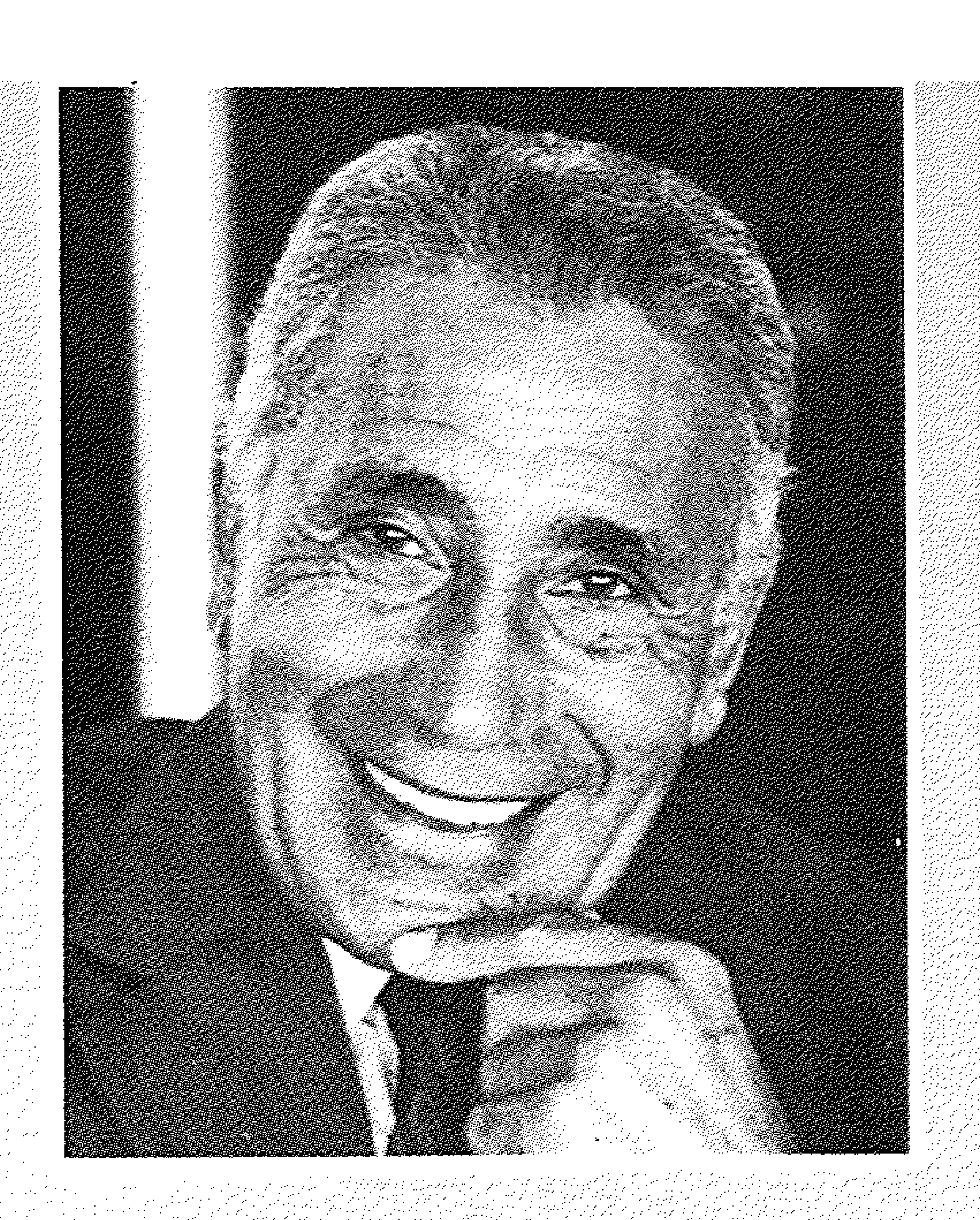
إن الأمة وصلت بمجمل ما عاشته منذ انتهت الحرب العالمية الثانية ـ إلى نهاية قرن، وإلى نهاية عصر ـ وفق تعبير فرنسى شائع.

وليس من باب البحث عن خاتمة سعيدة والسلام لهذا الكلام أن أضيف أننا على وشك لقاء قرن جديد وعصر جديد، وكلاهما معبأ باحتمالات «أوقات مثيرة». ومن شواهد بعض ما أراه عند حافة الأفق ـ فإن «الأوقات المثيرة» القادمة قد لا تكون بالضرورة صينية.

شكرًا لكم جميعًا ـ وسَلِمتُم دومًا.

**رقم الإيداع ١٤١٠٥/٩٩**
**الترقيم الدولى** 2 - 0571 - 09 - 977

**مطابع الشروق**
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



# حرب
## من نوع جديد!

... وهل تحقق فعلاً ما كان مستهدفاً بعد السويس (عندما أحاطت شعوب الأمة درْعاً من الفولاذ بواحد من أوطانها) ـ وهل صحيح أن ذلك لم يعد قابلًا للتكرار كما ترْغب قوى السيطرة وتطلب ـ أو أن الإرادة العربية ما زالت فيها بقية إرادة كامنة؟

وهنا يُطالعنا المشهد العربي العام على خط يمتد من بغداد إلى الرباط، موحياً بأن المطلوب تحقق. لكن هناك مشهداً بعينه يبرز أمامنا فى عواصم ومدن عربية كثيرة يومئ إلينا بأن المطلوب لم يتحقق، وأن إرادة الأمة تتنفس بدليل أن شعوب الأمة تقاوم محاولات تطويع إرادتها، بما فى ذلك تطبيع لا تقبله فى العلاقة مع إسرائيل. ثم تظل الموازين متأرجحة على حافة خطرة ـ بينما هذه «الحرب من نوع جديد» تواصل ضغوطها على أعصاب الأمة العربية، وبالتركيز على تاريخها، وذاكرتها، ووعيها، وفكرها ـ وتلك هى ميادين القتال فى هذه الحرب من نوع جديد.

محمد حسنين هيكل

7